الآداب الجاهلية

نريد بالآداب الجاهلية الآداب العربية التي كانت عند العرب قبل الإسلام وقد تطورت عندهم، وأهمها اللغة والشعر والخطابة والإنشاء، وننظر في كل منها على حدة.

(١) اللغة

اللغة مرآة عقول أهلها ومعرض آدابهم وأخلاقهم وسائر أحوالهم، تتبعهم فيما يطرأ عليهم من التغيير وتحفظ آثار ذلك التغيير. وقد تتبدل أحوال الأمة ويذهب كثير من عاداتها أو آدابها وتبقى آثار ذلك في ألفاظها وتراكيبها، وقد رأيت ما حدث في اللغة من الآداب الشرعية واللسانية، فاقتضى ذلك طبعًا أن يحدث فيها ألفاظ جديدة أو تتنوع بعض ألفاظها للتعبير عن المعاني الجديدة ...

فمن المصطلحات اللغوية التي اقتضتها العلوم اللسانية قولهم: النحو والعروض والشعر والإعراب والإدغام والإعلال والحقيقة والمجاز والنقض والمنع والقلب والرفع والنصب والخفض والمديد والطويل وغيرها من أسماء البحور وضروب الإعراب والتصريف، وهي كثيرة جدًّا ولها فروع واشتقاقات ... حتى لقد أصبح للفظ الواحد معنى فقهي وآخر لغوي وآخر عروضي وآخر ديني مما لا يمكن حصره، أما المصطلحات الشرعية فقد ذكرنا بعضها في الكلام على اللغة في عصر صدر الإسلام، فليقس عليها.

ودخل اللغة في هذا العصر كثير من المصطلحات الإدارية كالخلافة والوزارة والحجابة والإمامة وغيرها من مصطلحات الجند: كالمسترزقة والمتطوعة والعلوفة والعسكر، وضروب الحرب وأبواب الهجوم: كالزحف والكر والفر والبيات والكفاح والغرة، وصنوف الأسلحة: كالدبابة والكبش، والعرادة وغيرها ... ناهيك بمصطلحات

الدواوين على إجمالها كقولهم: الثغور والعواصم والإقليم والقصبة والعمل والولاية والضياع والحكومة والسكة والتوقيع والوظيفة والخراج والجزية والعشور والمرافق والصوافي والجوالي والجباية والوقف والمصادرة والمستغلات والصدقة والمكوس والمراصد ودار الضرب والضمان والدفاتر والجرائد والخرائط والإيغار والراتب والجاري والعطاء والبيعة والدعوى والختم والخطط والمطالعة والمؤامرة وغير ذلك كثير جدًّا.

وأكثر هذه الألفاظ كانت موجودة في اللغة، لكن مدلولاتها تغيرت بتغير أحوال العرب بعد إنشاء دولتهم لحدوث معانٍ جديدة اقتضاها ذلك التغيير.[١]

(٢) الشعر في العصر الأموي

لم يكن للشعر العربي تأثير في النفوس ومنزلة في الدولة في عصر من عصور العرب مثل ما كان له في العصر الأموي ولا غرابة في ذلك بعد ما علمته من خصائص ذلك العصر السياسية وطبائع الأمويين، ولا بأس من ذكر الأسباب التي بعثت على ازدهار الشعر في هذا العصر ومنزلته في الدولة وتأثيره في النفوس بإيجاز، ثم نأتي على مميزاته.

أسباب رواجه

(١) انقسام القبائل بالعصبية: اقتضت سياسة بني أمية استعداء القبائل بعضها على بعض بالرجوع إلى عصبية الجاهلية، وأول من فعل ذلك معاوية في الخلاف بينه وبين علي وأبنائه، ثم كان انقسام القبائل عند انتقال الخلافة من آل معاوية إلى آل مروان وكلاهما من بني أمية، ونشبت الحرب في مرج راهط، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك. وأخيرًا قام طلاب الخلافة من غير العلويين في زمن يزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان وهم الحسين بن علي وآل الزبير والأزارقة وسعيد بن الأشدق وغيرهم كما تقدم، ولكل خارج قبيلة أو بضع قبائل تنصره، والأمويون يستعينون بالشعراء على اختلاف قبائلهم وبطونهم ... يتألفونهم بالعطاء؛ لعلمهم بما لقول الشاعر من التأثير في نفوس عشيرته لأنه لسان حالها، فازداد الشعراء بذلك نفوذًا وتقربًا من الخلفاء أو الأمراء، وكان الخليفة يعد مدح الشاعر له دليلًا على رضا قبيلته عن سياسته لأنه لسان حالها، والقبيلة تعد إكرام الخليفة لشاعرها إكرامًا لها.

(٢) سخاء بني أمية بالأموال: واقتضت سياستهم تألف الشعراء بالمال فضلًا عن اضطرار الشعراء وغيرهم إلى استرضائهم خوفًا من قطع العطاء عنهم، والعطاء يومئذ رواتب الجند وسائر المسلمين، وكان المسلمون في صدر الإسلام كلهم جندًا، ولكل منهم راتب يتناوله من بيت المال على شروط مذكورة في الديوان[٢] فمن قبض على بيت المال قبض على رقاب الرعية، ويجدر بهم أن يتقربوا منه ويتزلفوا إليه، فإذا كان القابض عليه حكيمًا يعرف كيف يعطي ولمن يعطي، أغناه ذلك عن سائر الأسباب فيزيد العطاء أو ينقصه أو يقطعه على حسب الاقتضاء.

كذلك كان يفعل الدهاة من بني أمية، وقدوتهم معاوية بن أبي سفيان أكبر دهاة العرب ... فقد جعل تصرفه في العطاء وسيلة لاكتساب قلوب المسلمين حتى أشياع العلويين وغيرهم من أبناء الصحابة الذين كان يخاف قيامهم للمطالبة بالملك، فأحر به أن يفعل ذلك بالشعراء ولهم رواتب في بيت المال مثل سائر المسلمين، فلم يكن الشعراء يرون بدًّا من استرضاء بني أمية؛ خوفًا من قطع أعطيتهم فضلًا عما يرجونه من الجوائز إذا أحسنوا إرضاءهم ...

(٣) رغبة بني أمية في الشعر: كان لبني أمية رغبة شديدة في إحياء لسان العرب وآدابه كما قدمنا، وكان الخلفاء أنفسهم من أهل الأدب، نفوسهم شاعرية حساسة، حدث معاوية عن نفسه: قال: «اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر دأبكم، فلقد رأيتني ليلة الهرير بصفين وقد أتيت بفرس أغر محجل بعيد البطن من الأرض وأنا أريد الهرب لشدة البلوى، فما حملني على الإقامة إلا أبيات عمرو بن الأطنابة»:

أبتْ لي همتي وأبى بلائي ... وأخْذي الحمد بالثمن الرَّبيحِ
وإقحامي على المكروه نفسي ... وضربي هامةَ البطل المُشيحِ
وقولي كلما جشَأت وجاشت ... مكانَك تحْمَدِي أو تَستريحي
لأدفع عن مآثر صالحاتٍ ... وأحمي بعدُ عن غَرَضٍ صحيح[٣]

ويزيد بن عبد الملك رد الأحوص الشاعر من منفاه ببيت شعر له غنته فيه جميلة المغنية وهو قوله:

كريمٌ قريشٍ حين يُنسب والذي ... أقرتْ له بالملك كَهلًا وأمْردا

فطرب يزيد وقال: «ويحك، من كريم قريش هذا؟» قالت: «أنت وقد قاله الأحوص وهو منفي»، فكتب برده، وأنفذ له حللًا سنية وأدناه وقربه، وقال له يومًا: «لو لم تمت إلينا بحق ولا صهر ولا رحم إلا بقولك:

وإني لأستحييكم إذ يقودني إلى غيركم من سائر الناس مطمع

لكفاك ذلك عندنا».[٤]

وقد راسل عبد الملك بن مروان عدوه ابن الزبير بالشعر وأجابه ذاك بمثله[٥] وكان عمال الأمويين أصحاب شعر وخيال وحس مثلهم، فالحجاج وهو أشدهم وطأة، جيء بالأسرى بين يديه بعد حرب الأشعث فأخذ في قتلهم بقية ذلك اليوم حتى صاح به رجل: «والله يا حجاج لئن كنا قد أسأنا بالذنب فما أحسنت بالعفو، ولقد خالفت الله فينا وما أطعته» فقال له: «وكيف ... ويلك؟» قال: «لأن الله — تعالى — يقول: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ وقد قتلت فأثخنت حتى تجاوزت الحد فأسر ولا تقتل»، ثم قال: «أو أمنن» فقال الحجاج: «ويل لك ألا كان هذا الكلام منك قبل هذا الوقت» ثم نادى برفع السيف، وأمن الناس.

وكان بنو أمية يحفظون الشعر ويباحثون الشعراء وينتقدونهم، وكثيرًا ما كانوا يجمعون طائفة منهم في مجلس ويقترحون عليهم أن يصفوا شيئًا ويجيزون المجيد كما فعل هشام بن عبد الملك[٦] أو يجمعونهم ليتفاخروا بين أيديهم كما فعل سليمان بن عبد الملك؛ إذ جمع الفرزدق وجريرًا وكثيرًا وابن الرقاع، وقال لهم: «أنشدونا من فخركم شيئًا حسنًا ... ففعلوا في حديث طويل».[٧]

وقد يخطر لأحدهم شعر لا يعرف قائله أو يحتاج إلى تفسير، فيكتب إلى الشاعر أو الراوية فيستقدمه من العراق إلى الشام على البريد كما فعل هشام المذكور ... إذ بعث برسالة عاجلة من دمشق إلى عامله بالبصرة أن يشخص إليه حمادًا الراوية على البريد، فقضى حماد اثنتي عشرة ليلة في الطريق وهو خائف من تلك الدعوة العاجلة فإذا هو يقول له: «بعثت إليك لبيت خطر ببالي لم أدرِ من قائله»:

فهدأ روعه وقال: «وما هو؟» فقال:

فدَعوا بالصَّبوح يومًا فجاءتْ قينة في يمينها إبريق

فقال حماد: «هذا يقوله عدي بن زيد من قصيدة» وأنشده إياها.

وكذلك كان يفعل عمالهم إذا علموا بوجود شاعر أو أديب بارع بعثوا في استقدامه مما يطول بنا ذكره.[٨]

وكان من الخلفاء شعراء، كالوليد بن يزيد؛ فقد كان شاعرًا بليغًا، وسيأتي خبر ذلك، وينسبون إلى يزيد بن معاوية القصيدة المشهورة التي مطلعها:

نالتْ على يدها ما لم تنله يدي نَقشًا على مِعصمٍ أوهتْ به جَلدي

وربما كانت لغيره، لكنه كان من أصحاب الشاعرية.

وكان لبعض خلفائهم الدهاة شغف بالأدب على الإجمال، ونخص منهم ثلاثة: معاوية، وعبد الملك، وهشامًا. حكم كل منهم أكثر من عشرين سنة، وكانت لهم عناية بالأدباء وخصوصًا عبد الملك، والأدب لا ينمو ويورق ويثمر إلا في ظل محبيه من الملوك أو الأمراء، وإذا تدبرت النهضات التي مر بها الأدب في أثناء التمدن الإسلامي رأيت لكل نهضة أميرًا أو ملكًا أخذ يناصرها وأحيا الأدب بتقديم أهله أو تنشيطهم، وسترى أدلة كثيرة من ذلك فيما يأتي من هذا الكتاب.

فلا عجب إذا كان أكثر أحاديث الناس في مجتمعاتهم ومنتدياتهم في الشعر ومن هو أشعر شعراء الجاهلية أو الإسلام، وكان الرائج من شعراء الجاهلية في عصرهم امرأ القيس وزهيرًا أو النابغة يفضلونهم على سواهم، ويفضلون جريرًا والفرزدق والأخطل على سائر الشعراء المسلمين في أيامهم. لكنهم كانوا يتناقشون في أي هؤلاء أشعر وكثيرًا ما كانوا يتخاصمون وترتفع أصواتهم، وربما اهتم الخليفة أو الأمير فبعث إلى بعض العلماء يسأله عن رأيه في أشعر الشعراء كما فعل الحجاج؛ إذ بعث إلى ابن قتيبة يسأله عن ذلك،[٩] وقد يبعثون من الشام إلى العراق لمثل هذا السؤال.

(٤) الحركة الأدبية في البصرة والكوفة: قد علمت ما كان من حال هذين البلدين في العصر الأموي، وفيهما احتك العرب بغيرهم من الأمم المتمدنة، وفيهما اشتغل المسلمون بجمع أخبار العرب وأشعارهم وأمثالهم، وفيهما ولد النحو وغيره من الآداب اللسانية، فتكاثرت الأندية الأدبية هناك ولا سيما المربد عكاظ الإسلام كما تقدم، فكان ذلك من جملة البواعث على ازدهار الشعر في العصر الأموي.

على أن الشرق كله كان يومئذ في نهضة أدبية حتى الهند والصين واليابان فقد نبغ فيها الشعراء والأدباء في القرن الثامن للميلاد[١٠] على أثر ظهور الإسلام واتساع فتوحه فاهتزت أعصاب الشرق إلى أقصاه، فحدثت فيه تلك النهضة.

(٣) مميزات الشعر في العصر الأموي

الإنسان صنيعة الإقليم، فتتغير أطواره وأحواله بتغير البيئة المحيطة به، ويظهر أثر ذلك في نتاج قريحته أو فكرته، وقد رأيت أن العرب اختلفت أحوالهم في العصر الأموي عما كانت عليه في زمن الجاهلية أو في زمن صدر الإسلام فظهر أثر ذلك في ثمار قرائحهم وخصوصًا الشعر، وإليك أهم مميزاته في ذلك العصر:

(١) خلوه من وحشي الكلام: إن قرب العصر الأموي من الجاهلية ورغبة الأمويين في البداوة وتقليدهم عرب الجاهلية في آدابهم وأشعارهم، كل ذلك أبقى للشعر الأموي بلاغة الجاهلية وسلامتها من العجمة والركاكة، لكن الإسلام أكسبه أسلوب القرآن والحديث، فتخلص من التركيب الغريب والكلام الوحشي، فهو من حيث البلاغة أحسن في هذا العصر مما في سائر العصور وإن كان لكل عصر مميزات.

(٢) كثرة التشبيب: كان الشاعر الجاهلي يقول الأبيات تغزلًا في حبيبته، يعبر بذلك عن حبه أو ما تكنه جوارحه من الغرام أو الشوق، ولا يشبب في غير حبيبته أو خطيبته، وقد يسميها بغير اسمها، والغالب أن يكني عنها بإحدى عرائس الشعر؛ لئلا يعلم أهله بتشبيبه فيمنعوه من التزوج بها؛ لأنهم كانوا شديدي الغيرة على النساء حتى إن أحدهم إذا سطا عليه عدو وخاف على حياته منه عمد إلى امرأته أو حبيبته فيقتلها غيرة عليها من أن يمسها سواه بعد موته،[١١] ويندر في الجاهليين أن يشبب شاعرهم بغير حبيبته، وإذا فعل فلداع فوق العادة، كما فعل دريد بن الصمة إذ رثى أخاه بقصيدة صدَّرها

بأبيات غزلية،[١٢] وقد رأيت الشعراء العشاق في الجاهلية يُعدون على الأصابع، فأصبحوا في العصر الأموي أضعاف ذلك، وأكثروا من وصف الحب وأعراضه وأحواله …

وذلك طبيعي في الأمة بانتقالها من البداوة إلى الحضارة، وخصوصًا إذا كان ذلك على أثر الفتوح وفيها الغنائم من السبايا … فيصيب الرجل منهم جارية أو بضع جوارٍ في كل معركة من المعارك، وكانت السبايا في صدر الإسلام كثيرات، وأكثرهن من الروم والفرس، والفاتحون يبيعونهن أو يستخدمونهن في حاجات المنزل، ويستبقون الجميلات منهن للتسري، فتحركت القلوب وتنبهت القرائح للموضوعات الغزلية، وصار الشعراء يشببون بالنساء الجميلات، وكان الخلفاء الراشدون يعدون ذلك خروجًا على حرمة الأدب، فجعلوا التشبيب ذنبًا يستوجب القصاص، وكان عمر بن الخطاب لا يسمع بشاعر يشبب بامرأة إلا جلده.[١٣]

فلما أفضت الدولة إلى بني أمية — وقد انتقلت عاصمتها من المدينة إلى دمشق، وكثر الاختلاط بالأعاجم، وأخذ العرب بأسباب الحضارة، وذهبت هيبة العفة من نفوسهم، وانقضت شدة الخلفاء الراشدين في المحافظة عليها — هان عليهم التشبيب، فأكثروا منه ولا سيما في المدينة لأن أهلها أغرقهم معاوية بالعطايا والرواتب ليشغلهم باللهو عن طلب الملك، فكانوا ينفقون الأموال على المغنين ونحوهم، فكثر اللهو في المدينة وسبقت سائر المدائن الإسلامية إلى الغناء وشاع القصف بين أهلها وتجرأ الشعراء على التشبيب بغير أحبائهم.

إمام أهل النسيب

على أن إمام أهل النسيب والغزل في الإسلام جميل بن معمر الشاعر العاشق كان معاصرًا لعبد الملك بن مروان، وهو الذي وطأ النسيب للشعراء، فأكثر منه وتفنن فيه … لكنه كان يشبب بحبيته بثينة وهو في عرف أهل الأدب «إمام المحبين»،[١٤] فاستحسن الناس تشبيبه لأنه طبيعي صادر عن شعور صادق، فأخذوا يقلدونه فيه … فينظم الشاعر أبيات الغزل أو النسيب لمحبوب وهمي، واستعار بعضهم أسماء حبيبات الشعراء العاشقين كليلى ودعد وهند وشببوا بهن تقليدًا، وبعد أن كانت بثينة مثلًا معشوقة جميل بن معمر، صارت عروسًا للشعر يباح التغزل بها لمن أراد، وقد يعنون بالاسم المستعار امرأة جميلة معروفة.

فجميل كان يشبب بحبيبته ولا حرج عليه، وأراد الشعراء تحديه والتغزل بجميلات النساء وهن في الغالب بحوزة الأمراء أو الخلفاء ... فخافوا غضب بعولتهن أو آبائهن، فلم يكن يجرؤ على المجاهرة بذلك من الشعراء إلا من كان ذا عصبية تنصره أو منزلة تشفع له، ولذلك كان أسبق الشعراء إلى التشبيب من قريش، نظرًا لما كان للقرشي من المنزلة الرفيعة والهيبة في العصر الأموي. ولأن القرشيين أقرب إلى الحضارة لنزولهم في مكة، وإليها يحج الناس من أقطار العالم ومعهم أجمل النساء.

شعراء قريش والتشبيب

وأول من تجرأ على التشبيب منهم ابن أبي عتيق، وهو ابن حفيد أبي بكر الصديق. ويقولون: إنه كان طاهرًا عفيفًا يشبب عن غير ريبة، ثم عمر بن أبي ربيعة من قريش، والعرجي وهو من قريش أيضًا، وغيرهم، وكلهم من شعراء العصر الأموي، فتجرأ الشعراء من غير قريش على الاقتداء بهم حتى شاع التشبيب، وصاروا يعتقدون أن الشعر لا يحسن إلا به لما فيه من عطف القلوب، فيبدأ الشاعر الحضري بذكر الحبيب والصدود والهجران، كما يبدأ البدوي بذكر الرحيل والانتقال ووصف الطلول.

ولم يأتِ آخر عصر بني أمية حتى صار الشاعر لا ينظم مديحًا أو فخرًا إلا صدره بأبيات في الغزل قد تكون أكثر من أبيات المديح. ذكروا شاعرًا أتى نصر بن سيار عامل بني أمية على خراسان بأرجوزة فيها مائة بيت نسيبًا وعشرة أبيات مديحًا، فقال له نصر: «والله ما أبقيت كلمة عذبة ولا معنى لطيفًا إلا وقد شغلته عن مديحي بنسيبك»،[١٥] ولم يكن الاستهلال بالغزل خاصًّا بالشعر العربي، فإن في شعر اليونان شيئًا من ذلك.[١٦]

على أن شعراء العرب كثيرًا ما كانوا يشببون بالمرأة ليفضحوا ابنها أو زوجها[١٧] وقد يكون التشبيب بالبنات وسيلة لزواجهن كما فعل نصيب مولى عبد العزيز بن مروان، وقد استسقى فتاة ماء فسقته لبنًا وطلبت إليه أن يشبب بها، فقال: «ما اسمك؟» قالت: «هند» قال: «وما اسم هذا الجبل؟» قالت: «قنا»[١٨] فأنشأ يقول:

أحب قَنًا من حُبِّ هندٍ ولم أكن ... أبالي أقُربًا زاده الله أم بعدا
ألا إن بالقيعان من بَطْن ذي قنًا ... لنا حاجةً مالت إليه بنا عمدا
أروني قنًا أنظرْ إليه فإنني ... أحبُّ قنًا إني رأيت به هندا

وشاعت هذه الأبيات وخُطبت هذه الجارية من أجلها.[١٩]

الخلفاء والتشبيب

وكان الأمراء والكبراء يغضبون لنسائهم إذا شبب بهن أحد لغلبة طبائع البدو عليهم، وينقمون على المشبب ويعيبونه حتى عدوا شعر ابن أبي ربيعة عصيانًا لله.[٢٠]

وقد يكبر على الخليفة أن يظهر غضبه على الشاعر إذا شبب ببعض أهله فينتقم منه بالإهمال، كذلك كان يفعل معاوية[٢١] وهو أوسع الناس صدرًا، واقتدى به عبد الملك بن مروان[٢٢] أما ابنه الوليد بن عبد الملك فلم يسَع صدره ذلك الكظم، فأخذ يتوعد الشعراء إذا شببوا، وبلغه أن وضاح اليمن شبب بامرأته فقتله فيما يقال[٢٣] وكذلك فعل عمر بن عبد العزيز فمنع ابن أبي ربيعة عن التشبيب، وكان العمال يقتدون بالخلفاء أو يعملون بأوامرهم في ذلك، فإن عامل المدينة نفى الأحوص الشاعر لأنه شبب ببعض نسائها.[٢٤]

ولكن المرأة كان يسرها أن يشبب بها شاعر مشهور وإن كانت لا ترجو التزوج به، ولكن يسرها ما في التشبيب من الإعجاب بجمالها (والغواني يغرهن الثناء) سواء في ذلك الأميرة والحقيرة، ذكروا أن زوجة الوليد بن عبد الملك هي التي اقترحت على وضاح اليمن أن يشبب بها ... واقترحت أم محمد بنت مروان بن الحكم أخت عبد الملك على عمر بن أبي ربيعة أن يشهرها بشعره، وبعثت إليه ألف دينار ... فأبى أن يؤجر على التشبيب، فابتاع بالجائزة حللًا وطيبًا وأهداه إليها فردته، فقال فيها أبياتًا مطلعها:

أيها الراكب المُجِدُّ ابتكارا قد قضى من تِهامةَ الأَوْطارا[٢٥]

وبالجملة فإن التشبيب على نحو ما هو عليه الآن نشأ في العصر الأموي.

(٣) المهاجاة بين الشعراء: كان الجاهليون يتنافسون ويتفاخرون فيذكر أحدهم ما في قبيلته من الشجاعة والنجدة وما أوتوه من النصر أو الغلبة أو ما هم عليه من هذه الفضائل، ويندر فيهم من يتخطى ذلك إلى الهجو، وأكثر من تخطاه منهم المخضرمون كما تقدم، وقد كثر الهجو واتسعت دائرته في العصر الأموي وأجاد الشعراء فيه، ولبعضهم مهاجاة ونقائض تدخل في كتاب ضخم.

الهجاء السياسي

وقد راج الهجاء في العصر الأموي لاحتياج ولاة الأمر إليه بسبب الانقسام الذي قام بين الأحزاب المختلفة، وهو الهجاء السياسي، وكان أكثر الشعراء يأخذون بناصر الأمويين لأنهم أهل السيادة، وكان خلفاؤهم يبذلون الأموال للشعراء ليستعينوا بألسنتهم على أعدائهم؛ لتأثير الهجاء في نفوس العرب لشدة إحساسها ونخوة أهلها.

وقد بدأت المهاجاة في الإسلام بين شعراء النبي وأعدائه القرشيين، ثم صارت بين قريش واليمن، وكان لكل من الجانبين شعراء يردون عنهم الهجاء بأشد منه، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك. وكان المسلمون يحفظون ما يقوله هؤلاء من المهاجاة وينشدونه، كل طائفة تنتصر لأصحابها، ولما بلغ ذلك عمر بن الخطاب فنهى عنه، وقال: «في ذلك شتم الحي بالميت وتجديد للضغائن».[٢٦]

فلما أفضى الأمر إلى معاوية، اقتضت سياسته ومصلحته أن يجدد تلك الضغائن ... فجعل يغري الشعراء على الطعن في الأنصار لأنهم أصحاب علي بن أبي طالب خصمه، وكان يفعل ذلك تحت طي الخفاء، ومن الذين أغراهم على ذلك الطعن الأخطل، الشاعر التغلبي المشهور ... فعظم ذلك على الأنصار خصوصًا لأنه نصراني، واستعان به معاوية على المسلمين، فغضب متكلم الأنصار وشاعرهم، وهو يومئذ النعمان بن بشير، ودخل على معاوية وأنشده قصيدة في الدفاع عن الأنصار مطلعها:

معاويَ إلا تُعطنا الحقَّ تعترفْ ... لِحيَ الأزد مشدودًا عليها العمائم
أيشتمنا عَبدُ الأراقم خلة ... وماذا الذي تجري عليك الأراقم
فما ليَ ثأرٌ دون قطع لسانه ... فدونك من يرضيه منك الدراهم

ثم تخلص إلى الفخر بأعمال الأنصار وأنسابهم، وختم القصيدة بالطعن على خلافة معاوية إلى أن قال:[٢٧]

وإني لأغضي عن أمور كثيرة ... سترقى بها يومًا إليك السلالم
أصانع فيها عبد شمسٍ وإنني ... لتلك التي في النفس مني أكاتم
فما أنت والأمر الذي لست أهله ... ولكنْ ولي الحق والأمرِ هاشمُ

فلما سمع معاوية تهديده أظهره أن الأخطل فعل ذلك من عند نفسه، وأمر أن يدفع إليه ليقطع لسانه، وأوشك أن يفعل، لو لم يستجر الأخطل بيزيد بن معاوية فأجاره وأرضى النعمان، وعرف الأمويون هذا الفضل للأخطل، فجعله عبد الملك بن مروان شاعر الدولة، وسنعود إلى ذلك.

وتحولت المهاجاة بين الأنصار وقريش إلى المشاتمة بين بني هاشم وبني أمية، وانتشر ذلك في أطراف المملكة الإسلامية، وكان سديف الشاعر يخرج في جماعة من موالي بني هاشم في مكة، وشبيب يخرج في جماعة من موالي بني أمية، فيفتخرون ثم يتشاتمون ثم يتجالدون بالسيوف، وكان يقال لهم السديفية والشبيبية، وكان أهل مكة منقسمين بينهما في العصبية.

الهجاء الأدبي

على أن التهاجي السياسي جر إلى التهاجي بين الشعراء بقطع النظر عن الأحزاب السياسية من قبيل المفاخرة، ويختلف سبب هذه المهاجاة باختلاف الأحوال، وقد يكون الغرض منها المقارعة لبيان المقدرة على الهجاء، ثم يتنافر المتهاجيان إلى من يحكم بينهما … كما تهاجى جميل الشاعر المتيم وجواس بن قطبة العذري وتنافسا في أيهما أفضل أبًا وحسبًا.[٢٨]

وأشهر ضروب المهاجاة في العصر الأموي المهاجاة بن جرير والفرزدق، وبين جرير والأخطل، وغيره من الشعراء المعاصرين. والبادئ في ذلك كله هو جرير، وكان لمهاجاته مع الفرزدق والأخطل شهرة كبيرة حتى أصبح حديث القوم في مجالسهم وموضوع مناقشاتهم في أي الشاعرين أفضل، وانقسم الناس في ذلك حزبين: نسب أحدهما إلى جرير فسمى جريريًّا، والآخر إلى الفرزدق فسمي فرزدقيًّا، وكثيرًا ما احتدم الجدال بين الأدباء في المجالس حتى آل إلى الخصام، وسيأتي تفصيل ذلك في الكلام عن شعراء بني أمية، وقد يكون الباعث على الهجاء تخويف المهجو ليسترضي الهاجي بالمال أو غيره، كما تفعل بعض الصحف اليوم.

واتصلت المهاجاة بين الشعراء إلى العصر العباسي، فاشتهرت مهاجاة بشار بن برد وحماد،[٢٩] ومهاجاة أبي العتاهية ووالبة،[٣٠] على أن اشتغال الناس بالمناقشة في الشعراء

وتفاضلهم طبيعي في كل عصر، وليس هو خاصًّا بالعرب ... فقد كان اليونان أيضًا يفعلون ذلك.[٣١]

(٤) نبوغ الموالي في الشعر: قد رأيت أنه لم يقل الشعر في الجاهلية من الموالي إلا عبد بني الحسحاس، وأما في الإسلام فانتظم في عداد الشعراء طائفة من الموالي وهم المسلمون غير العرب،[٣٢] وفيهم الفرس والروم وممن دخل في حوزة العرب في أثناء الفتح ثم أسلموا، وأكثرهم من موالي بني أسد وقريش ... وفيهم جماعة من نوابغ الشعراء، ولولا تقيد القوم بأساليب الجاهلية لأدخلوا كثيرًا من المعاني الشعرية نقلًا عن لغاتهم الأصلية.

(٥) الشعر السياسي أو المديح للاستجداء: قد علمت مما تقدم أن الشعراء الجاهليين نظموا المديح، لكنهم قلما كانوا يستجدون بمدحهم ... وإنما كانوا يمدحون شكرًا لصنيع، وأما في العصر الأموي، فأصبح الغرض الأول من المدح التماس العطاء، وقد جرهم إلى ذلك استدرار الخلفاء للمدح ببذل الأموال للأسباب التي قدمناها.

فأصبح الاستجداء عادة مألوفة، ونبغت طائفة كبيرة من المداحين، وكانوا يتذبذبون في مدحهم تبعًا لما يرجونه من العطاء أو يخافونه من النقمة، ولذلك كان أكثر مديحهم في الأمويين أصحاب السيادة وبيت المال، وربما مدح أحدهم بني هاشم أو آل الزبير أو غيرهم من أعداء الأمويين، ثم رغب عنهم إلى هؤلاء التماسًا لعطائهم أو خوفًا من غضبهم لأن الأمويين كانوا يغضبون على الشعراء إذا مدحوا سواهم ويتطرقون إلى الانتقام منهم بكل وسيلة، فلا غرو إذا رأينا شعراء الشيعة ينظمون المدائح في الأمويين، ومن الشعراء من مدح بني هاشم وبني أمية أو ابن الزبير وبني أمية.

(٦) وصف الخمر: لم يتقن الشعراء وصف الخمر إلا في العصر العباسي، لكنهم بدأوا بذلك في العصر الأموي على أثر انغماس الأمويين في القصف واللهو في أواخر الدولة، وأول من وصفها من المسلمين الوليد بن يزيد الخليفة الخليع السكير، وقد ذكر الخمر في الجاهلية عدي بن زيد والأعشى، ثم ذكرها الأخطل ووصف الزجاجة بقوله:

وتظل تتحفنا بها تَرْوِيَّةٌ ... إبريقها برقاعهِ مَلثُومُ
فإذا تعاورتِ الأكفُّ زجاجها ... نَفحتْ فشَمَّ رياحَها المزكوم[٣٣]

ثم أجاد في وصفها الوليد بن يزيد بقصيدة قال منها:

من قهوةٍ زانها تقادمُها ... فهي عجوزٌ تعلو على الحِقَبِ
أشهَى إلى الشَّرْب يوم جَلوتها ... من الفتاة الكريمة النسب
فقد تجلتْ ورقَّ جوهرها ... حتى تبدَّتْ في منظر عَجبِ
فهي بغير المزاج من شَررٍ ... وهي لدى المزج سائلُ الذهب
كأنها في زجاجها قَبَسٌ ... تذكو ضِياء في عَيْن مُرتقب

وله في وصف الخمر أشعار أخذها الشعراء في أشعارهم سلخوا معانيها ولا سيما أبو نواس، فإنه سلخ معاني الوليد كلها وجعلها في شعره،[٣٤] وأخذ أبو نواس أيضًا من الحسين بن الضحاك،[٣٥] وكان معاصرًا له، وأخذ من والبة وكان أستاذه.

هوامش

(١) راجع تفصيل ذلك في كتابنا تاريخ اللغة العربية «الطبعة الثانية» صفحة ٢٤ وما بعدها.

(٢) تاريخ التمدن الإسلامي «الطبعة الثانية» صفحة ١٥٤ ج١.

(٣) العمدة ١٠ ج١، والمشيح: الجاد في الأمر، وكلما جشأت وجاشت أي كلما اضطربت نفسي من خوف أو جزع.

(٤) الأغاني ٥٧ ج٨.

(٥) الأغاني ٦٨ ج١٣.

(٦) الأغاني ٨٠ ج٩.

(٧) الأغاني ٢٢ ج١٩.

(٨) الأغاني ٤٣ ج٧.

(٩) المزهر ٢٤٠ ج٢.

(١٠) Lit. Comp. 107.

(١١) الأغاني ١٤٥ ج١٢.

(١٢) العمدة ١٢٢ ج١.

(١٣) الأغاني ٩٨ ج٤.

(١٤) الأغاني ٨٠ ج٧.
(١٥) العمدة ٩٩ ج٢.
(١٦) جويدي في المشرق ٤٢٧ سنة ١٠.
(١٧) الأغاني ١٥٤ ج١.
(١٨) قنا: جبل لبني فزارة.
(١٩) الأغاني ١٤٨ ج١٣.
(٢٠) الأغاني ٣٦ ج٦.
(٢١) الأغاني ١٤٨ ج١٣.
(٢٢) الأغاني ٢٦ ج٦.
(٢٣) الأغاني ٣٦ ج٦.
(٢٤) الأغاني ٤٨ ج٤.
(٢٥) الأغاني ٦٦ ج١.
(٢٦) الأغاني ٥ ج٤.
(٢٧) الأغاني ١٢٦ ج١٤.
(٢٨) الأغاني ١١٢ ج١٩.
(٢٩) الأغاني ٧٤–٨٦ ج١٣.
(٣٠) الأغاني ١٥٠ ج١٦.
(٣١) نكلسن ٢٠٤.
(٣٢) راجع تاريخ التمدن الإسلامي ٢٢ و٩١ ج٤ الطبعة الثالثة.
(٣٣) الأغاني ٨٤ ج٨.
(٣٤) الأغاني ١١٠ ج٦.
(٣٥) الأغاني ١٧٠ ج٦.